الفصل الثالث

اسلوب شاكر ومعاركه

يهيىء لى أن حصول شاكر على البكالوريا شعبة الرياضيات كانت من عوامل إثراء أسلوبه مع تفوقه فى دراسة العربية .. ذلك أن التماس الذى حدث بين العلمين المختلفين كونا فى نفس شاكر مزيجا فكرياً مبدعاً لا يدانيه فكر فى قوته المخصبة .. ولما ابتل ريق شاكر وامتص حلاوة تفوقه فى رياضة المرحلة الثانوية بروية وتمهل ثم تبعتها حلاوة تفوقه فى دراسة السنة الثانية قسم عربى كانت حصيلتهما إثراء وجدانه عن كل ما حوله ، فقد كتب فى صفحة ١٤ فى منهجه التذوقى حول أسلوب توصله للفرق بين الشعر الجاهلى وغيره يقول : كلما فرغت من ديوان شاعر منهم بدأت صحبة شاعر آخر ... وكلما وجدت الشاعر جاهلى علاقة ما بشاعر جاهلى آخر ، صحبت ديوانه بعده أو معه ملتزما بهذا النظام الذى هدانى إليه ولوعى بالرياضيات فيما أظن .. مما يدل على أن الفن والفكر لا يثرى على أساس الفروض الشكلية .. وإنما على استصفاء منابع الإبداع وهى واحدة فى كل فن

وعلم - أو على حد تعبير محمود شاكر نفسه فى كتابه أباطيل وأسمار : «علمنى كتاب سيبويه يومئذ أن اللغة هى الوجه الآخر للرياضيات العليا» .

وقد وصف الكثيرون أسلوب محمود شاكر ، نختار ، ما قاله تلميذه الدكتور محمود الطناحى حيث كتب : «إن أسلوبه يبهرك جماله فيعجزك عن وصفه ، وغاية ما أستطيع أن أقوله عن هذا الأسلوب الذى لا يشبهه أسلوب لا فى القديم ولا فى الحديث إنه أسلوب إنحدر من سلالة كريمة وأن قدرته على التذوق التى واتته بعد دربة طويلة متوارثة ، انطلقت من الشعر الجاهلى الذى هو أنبل كلام للعرب وأشرفه بعد القرآن الكريم ثم استقرت عند القرآن الكريم الذى كان نزوله على النبى العربى حادثة فى تاريخ البشر ، وقد نمت هذه الدربة عند شيخنا بطول مدارسته للقرآن الكريم الذى هو البيان الإلهى الملفوظ وقد أفضى به ذلك إلى الإحساس العميق باللفظ العربى فى ترجيعه ونغمته فى الدلالة والألفاظ والتركيب والصور» .

وأساس البيان عنده هو دقة التذوق إذ يقول : «ونحن أبناء هذا اللسان العربى المبين قد قام أصل حضارتنا على التذوق فى الجاهلية الغابرة وفى الرسلام الباقى بحمد الله وحده وبلغ التذوق بنا مبلغا سنيا فريداً .

وحين بدأ تشققه وتبعثره بدأ معهما التدهور والإدبار فواجبنا اليوم أن نعيد بناء أنفسنا على ما بنيت عليه حضارتنا من دقة التذوق ، وأن

يكون التذوق أساس عملنا الأدبى فى آثار أسلافنا وإن كلمات أخبارهم التى أثرت عنهم بالفحص «الناقد وأن ننفض غيب كلماتهم بالتذوق ونتوسم بالتفرس فى معاطفها ، ثم نستجليها ونسألها ونستخبرها عن هذه السرائر المغيبة المحجوبة فى طواياها» .

ويواصل الدكتور الطناحى تهاونه : وأسلوبَ الشيخ أديب يمتع قارئه ولا يتعالى ، ثم هو أيضا أسلوب أديب يحترم عقل قارئه ، فلا يبهظه باللغو من الكلام ، ثم هو يريحه بكثرة الإحالات إلى ما مضى من الكلام ليجعله على ذكر من القضية التى يعالجها ولا يتركه حتى يعينه بتلك الشروح اللغوية التى تلتحم بالكلام إلتحاماً .

ولعل ما عثرنا عليه فى كتاب شاكر «طبقات فحول الشعراء» ما يثبت ذلك - أى إقباله على التحصيل - حيث يحكى علامتنا عن أيامه قبل دخوله الجامعة فيقول : ففى سنة ١٣٤٣ هجرياً - سنة ١٩٢٥ ميلاديا ، تقريبا - ولاحظ كيف يقدم علامتنا فى كتاباته التاريخ الهجرى تاريخ آبائه وآبائنا .. ثم يضع التاريخ الميلادى بين قوسين لأنه تاريخ الأمة المسيحية والوثنية كما يربط بينهما دائما لا سيما المسيحية الغربية يقول : عاد السيد أمين الخانجى من رحلته إلى العراق وغيره من بلاد العرب ، وقد جمع من نوادر المخطوطات شيئا لا يقدر بثمن ، وكان بينها صناديق فيها أوراق شتى «دشت» وذات يوم أقبلت عليه فى دكانه ، فإذا به يخرج لى ورقة حائلة اللون ، وسألنى : أتعرف هذا ؟ فما كدت أقرأ أسطرا حتى عرفت أنها من كتاب طبقات الشعراء .. لأبى

عبد الله محمد بن سلام الجمحي ، وكنت حديث عهد بقراءة الكتاب فاستطرت فرحا بما عرفت ، وقمنا معا إلى هذه الصناديق المبعثرة والأوراق ، نفرزها ورقة ورقة يوما بعد يوم ، حتى جمعنا من أوراق كتاب الطبقات قدراً عظيما ، فلما فرغنا ، أمرني رحمه الله أن آخذها فأرتبها وانقلها ، مخافة عليها من مثل ما كانت فيه ، ومن عوادي البلى عليها ، إذ كانت عتيقة الورق ، وفعلت مقصراً متراخياً ، فلم أتم نقلها ، وبقيت بقية من أوراق المخطوطة لم أنقلها وطال الزمن ، فسألني السيد أمين رحمه الله ، أن أرد إليه الأم العتيقة قبل تمام نقلها ، فرددتها إليه ، ولم أخبره بما كان مني من التقصير والتراخي .

– ودارت بي الأيام وفارقت مصر في سنة ١٣٤٧ (سنة ١٩٢٨) من ثم عدت إليها ، وقد فتر ما بيني وبين الكتب زمنا طال وامتد – أحسب أن هذا الفتور عن النظر في كتابة الكتب لا قراءتها – ثم لقيت أمينا رحمه الله ، فأخذ يستحثني أن أعيد النظر في كتاب الطبقات ، حتى أستطيع أن أعده للنشر ، فتراخيت ما تراخيت وهو يظن أني كنت قد فرغت من نقلها ، وأظن أنا أن النسخة لم تزل في حوزته ، ثم قضى أمين نحبه في يوم الجمعة ١٩ جمادى الأول ١٣٥٨ (٧ يولية ١٩٣٩) وقد جاوز السبعين من عمره ، غفر الله له ورحمة ولم يخبرني أين استقرت الأم العتيقة ، ولما سألت بعض ولده عنها ، لم أجد عند أحد منهم خبرا عنها ، ثم بدأت أبحث عنها في مكانها من دور الكتب العامة والخاصة فلم أعثر عليها حيث ظننت ، وبقيت نسختي التي نقلتها حبيسة في خزانة كتبي هذا الدهر الطويل ، حتى دعاني أخي الأكبر أحمد محمد شاكر ،

رحمه الله . إلى نشر هذه النسخة الناقصة ، فأستجبت له ، واستخرت الله وتوكلت عليه ، ثم بدأت فشرحت كتاب الطبقات ، وفرغت منه ، وتولت «دار المعارف» طبعه ، وكان الفراغ فى عصر يوم الأربعاء ٣٠ من ذى الحجة سنة ١٣٧١ هـ (١٠ سبتمبر سنة ١٩٥٢م) .

وبعد ظهور الكتاب فى الأسواق ، وبعد إهدائى نسخة منه إلى شيخنا وأستاذنا عبد العزيز الميمنى الراجكوتى .. أطال الله بقاءه ، مضى زمن طويل ثم جاءتنى منه رسالة يذكر فيها أنه قرأ فى إحدى مجلات المستشرقين مقالة للأستاذ آربرى المستشرق . فيها قراءة جديدة لكتاب الطبقات ، توشك أن تكون شبيهة بنسختى التى نشرتها من كتاب ابن سلام ، فلما اطلعت على المجلة أيقنت أن هذه النسخة التى أشار إليها آربرى هى نسختى التى فقدت خبرها بموت أمين الخانجى ، فبادرت وراسلت صديقنا الدكتور محمد رشاد سالم وكان يومئذ تلميذا لأربرى فى انجلترا ، وسألته أن يوافينى منها بصورة وعلمت أنها فى مكتبة «تشستربتى» ، فجاءتنى المصورة ، فإذا هى نسختى وعليها خطى وتوقيعى ، كما أشرت فى التعليق .

ومنذ وصلتنى هذه النسخة المصورة ، جعلت همى أن أعيد طبع الكتاب تاما ، وكان من فضل الله علىّ أن ظفرت أيضا بمصورة أخرى لنسخة المدينة ، شرفها الله وصلى على ساكنها صلاة مباركة .. وظل العزم كامنا حتى أذن الله فمهد لطبع كتاب

الطبقات مرة أخرى على وجه يرضينى بعض الرضى ، والحمد لله أولا وأخيراً » .

وبعد أن قص علينا محمود شاكر قصة مخطوطة كتاب الطبقات ، جاء ببابة يقارن فيها بين المخطوطتين العائدة من لندن ونسخة المدينة من حيث عدد الأوراق وعدد ما فيها من الخروم ، وصفة الخط فيهما مغربيا كان أم مشرقيا ليدل على أن نسخة المدينة مختصرة عن نسخته وهى أشياء دقيقة فى تفاصيلها ، عسيرة التتبع لمن لا يعرف مشقة التحقيق - ولما كان المستشرقون من أوائل الذين قاموا بالتحقيق فقد وضعوا للتحقيق قواعد تسهل لغير العرب عملية تقريب الناقص من حروف المخطوط .. مثل معرفة لغة عصره .. من حيث مفهوم ودلالة الكلمة فى هذا العصر .. وجهة النظر العامة لصاحب المخطوط التى يجب معرفتها من الكتب والمجامع التى تكلمت عن فكره . إلا أن العلماء أصحاب اللسان الضالعين فى معرفة كل هذا بغير طريقة المستشرقين لهم الحق عن جدارة .. فى أن يخرج كل منهم بأسلوبه الخاص .. فى تكملة هذه النواقص .. إلا أن الذين لا يملكون هذه الموهبة .. خضعوا بالكامل لهذه الدروس التى كان قد أنشأها جماعة من أغتام الأعاجم فى زماننا .. فتلقنوها عنهم حفظاً عن ظهر قلب ، فإذا جاء أحدهم كتاب أو وقع فى يده - من عمل أحد الأفذاذ الذين كانت محصلة علمهم تفوق قواعد المستشرقين - نظر ، فإذا كانت القواعد المحفوظة مطبقة فى هامش الكتاب فذاك «محقق» . فإذا لم ير أثرا ظاهرا فى هوامش

الكتاب يطابق المحفوظ من القواعد ، فهو كتاب «غير محقق » كتاب رديء جداً يقولها قائلهم كما وصفه علامتنا محمود شاكر : رافعا قامته مصعرا خده ، زاما شفتيه وأنفه - كهيئة المتقزز المتقذر . بهؤلاء وأشباههم ، تفشى وباء تحقيق الكتب «على هذه القواعد المحفوظة ، وشوه وجه الكتاب العربى هذا السيل الجارف بما تحمل من غثاء وجفاء وقذر هذا عجب !



ولأنه يصعب على غير المتخصصين إدراك مشقة التحقيق عند الأفذاذ فإليك لمحة منه وليكن فقط مجرد تسمية الكتاب .. فلأن علامتنا قد سمى كتاب ابن سلام الجمحى فى الطبعة الأولى «طبقات فحول الشعراء» فقد عاب ذلك عليه كثير من أفاضل أهل العلم ، بحجة أن اسم الكتاب كان هو «طبقات الشعراء» ..

فما كان منه إلا أن رد على اثنين منهم فقط هما الاستاذ السيد أحمد صقر والدكتور مصطفى مندور فقال : «ومعذرة إلى الأستاذين الجليلين ، إذا خالفت ما آثرا من الرأى ، مرة أخرى لا لأنى غير مقتنع بما ذكرا من الحجة على فساد رأيى وقبح جرأتى بل لأن مصورة المخطوطة ، قد فصلت ما بينى وبينهما وكنت قد قلت فى مقدمة الطبعة السالفة ، حين ذكرت أسباب عدولى عن تسمية الكتاب : «طبقات الشعراء» ما نصه و«آخرها» أنى رأيت على نسختى التى نقلتها بيدى هذا العنوان «طبقات فحول الشعراء» ، فلست أدرى بعد

هذا الزمان الطويل - أى قبل سفرته إلى السعودية سنة ١٩٢٨ م وعودته منها وكر الأيام والسنين ، بعد ذلك إلى سنة ٧٣ .. أكانت هذه الكلمة فى الأم العتيقة ، ثم نقلتها كما هى ، أم ترانى كتبتها من عندى ؟

ولا تظن هنا أن علامتنا يشك فى ذاكرته القوية .. لأنه عاد فقال : وأنا أرجح الأولى ، أى أن العنوان الأول كان «طبقات فحول الشعراء» ويدلل على ذلك بقوله : «لأنى كنت يومئذ صغيرا لم أتجاوز السابعة عشرة من عمرى ولأنى كنت يومئذ فى أول الطلب ، وأجهل من أن أنظر نظراً صحيحا فى مثل هذا الأمر الدقيق ، المحتاج إلى التميز والبصر» .

«فالآن . وقد ظفرت بمصورة من المخطوطة ، ونشرن صورتها فى أول الأوراق المصورة ، بعد هذه المقدمة ، أجد أن الفصل فى القضية لا يحتاج إلى برهان أدعيه على رأى أراه استنباطاً ، بل ما فى المخطوطة هو الفيصل .. وكنت أتمنى أن تكون المخطوطة ، تحت يدى ، لأن معانيها تكون أدق وأوضح ، والتصوير يخفى بعض ملامح الحروف ، ومع ذلك فإن عنوان الكتاب فى المصورة التى عندى ، فيه وضوح كاف ، سأصفه بقدر ما استطيع من الدقة ، وقد رأيت على عنوان الكتاب تلطيخا أسود أخفى الباء والألف والتاء فى لفظ «كتاب» وبقى واضحا بعده الطاء والباء والقاف والألف من لفظة طبقات ، ثم جاء محو فأخفى جزءا من تاء «طبقات» وبقيت نقطتا التاء ظاهرتين ، وفوق ألف «طبقا».

رأس فاء جليلة واضحة ، وما بعدها محو ، ثم يظهر بعد المحو حوض اللام الممدود هكذا « - » ، وفوق هذا الحوض ظهرت الشين والعين والراء والألف ، من لفظ «الشعراء» فيكون بينا بعد هذا الوصف أن تقرأ ما فى المصورة . «طبقات فحول الشعراء» ، وأكاد أقطع اليوم أنى قرأتها كذلك لما كانت المخطوطة نفسها فى حوزتى سنة ١٩٢٥م وأنى لم أكتب على نسختى التى نقلتها بيدى لفظ «طبقات فحول الشعراء» إلا استنادا إلى وضوحها فى المخطوطة لأنى بيقين كنت يومئذ صغيرا لا أحسن الإجتهاد فى الرأى ، وأجهل من أن أنظر نظراً صحيحاً فى أمر تغيير تسمية «الكتاب» ..

وها نحن وقد جرنا التداعى .. فبينما كنا ندلل أن محمود شاكر عرف طريقه للنشر، بكلمة من مقدمته لكتابه «طبقات فحول الشعراء» نصل إلى ردود أفعال كتاباته ولذا نعود إلى محمود شاكر وهو على أهبة السفر إلى السعودية - وما أن استقر فيها حوالى عامين .. إلا وبدأ يتلقى من أهله وأصدقائه لا أساتذته رسائل تطلب منه الصفح عما أغضبه ويعود إلى البلاد - بعد أن كاد أن يتزوج هناك فلم يلبث.. أن حزم حقائبه وعاد إلى الوطن بعد سنتين قضاهما فى الحجاز.

لم يكتب الأستاذ شاكر عن هاتين السنتين فى أى من كتبه التى تناول فيها أجزاء من سيرته الذاتية، مع أن هاتين السنتين كانتا فى حياته بمثابة، رأب الصدع الذى أحدثه تركه للجامعة، ولم الشعث الذى

تناثر عقب جلسة أبيه وهى مرحلة ضرورية. فنستنبط فحواها على هدى ما نعرف عن هذه المرحلة .

أولا : قبل أن يغادر مصر إلى السعودية كان قد انزاح عن كاهله الكثير، ذلك أنه بلا ريب كان قد قرأ فى الصحافة المصرية ، أن كتاب «الشعر الجاهلى» للدكتور طه حسين قد ظهر أواخر سنة ٢٦، وهو الكتاب الذى حوى المحاضرات التى أثارت الحمية والغيرة فيه على العرب.. وعندما نشرت فصول منه فى الصحف، صدرت مؤلفات فى الرد على الكتاب بأقلام محمد فريد وجدى ومحمد لطفى جمعة (١) وشكيب أرسلان ومحمد أحمد الغمراوى ويوسف الدجوى وعبد المتعال الصعيدى ومحمد عبد المطلب وعبد ربه مفتاح ومصطفى صادق الرافعى وأغلبهم عند علامتنا أساتذة وأصدقاء.

لقد رفع، بنشر كل هذا، عبئا كبيراً عن كاهل علامتنا الشاب الواعد ، بل جعله يتأكد أنه صاحب نظرة ثاقبة وحس دينى لا يخيب ، فها هو ذا الجميع يؤيد آراءه التى طالما واجه بها طه حسين ولكن لم يعرف خبر هذه المواجهة إلا زملاؤه وأساتذته فى الجامعة ثم فى مجلس أبيه.

وامتدت المعركة فى الصحف حتى شهر سبتمبر ، وقامت المظاهرات متوجهة إلى مجلس الوزراء وخرج سعد زغلول ليخطب فيها ويقول : «إن

---

(١) حملت جريدة كوكب الشرق لواء الحملة التى بدأها شكيب أرسلان .. عندما أرسل مقالا من روما ١٩ مارس سنة ١٩٢٦ تحت عنوان «التاريخ لا يكون بالإفتراض ولا بالتحكم» .

مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر فى هذه الأمة المتمسكة بدينها، هبوا أن رجلا يهذى فى الطريق فهل يضير العقلاء شىء من ذلك، إن هذا الدين متين، وليس الذى شك فيه زعيما ولا إماما حتى نخشى على شكه من العامة، فليشك ما شاء، ماذا علينا إذا لم يفهم البقر (١) .»

ولكن الشعب لم يسكت إلا حين تحولت هذه القضية برمتها إلى استجواب فى البرلمان وتحقيقات النيابة، فقدم النائب عبد الحميد البنان نائب الجمالية اقتراحا فى ثلاثة أقسام إبادة كتاب الشعر الجاهلى إحالة الدكتور طه حسين إلى النيابة إلغاء وظيفته.

وقد سلم معالى وزير المعارف بالقسم الأول من الاقتراح وتكلم دولة عدلى باشا رئيس الوزراء عن القسم الثانى وجرت بينه وبين دولة سعد زغلول مناقشة اشترك فيها وزير المعارف والحقانية .. انتهت بأن ذكر عدلى أن قرار المجلس بإحالة المؤلف إلى النيابة يكون بمثابة اعتراض على تصرف الحكومة وذكر مسألة الثقة بالوزارة.

وكان جو المجلس مشتعلا فاقترح النائب أحمد ماهر رفع الجلسة عشر دقائق ذهب سعد إلى مكتبه بمجلس النواب وتبعه عدلى ورشدى باشا، وبقيا معه عشر دقائق.. ولكنه كان متعبا فاستقل سيارته إلى داره وأشيع أن كثيرين من النواب سيعرضون مسألة مساس الدكتور طه بالدين كاستجواب لرئيس الوزراء أو ينتظرون إلى أن ينظر المجلس الميزانية.

---

(١) خطبة سعد في الجماهير نشرتها الأهرام في ٧ نوفمبر سنة ١٩٢٦ .

ونشرت الأهرام أن النائب عبد الحميد البنان قدم بلاغا إلى النيابة العمومية للتحقيق مع الدكتور طه حسين عما كتبه طعنا على الدين الإسلامي وقد تولى محمد نور بك رئيس نيابة مصر الجديدة حصره فى أربعة أمور.

كل هذا حدث قبل أن يغادر الفتى إلى الحجاز.. أما السنتان اللتان قضاهما هناك وفق استنباطي فتستغرقان مدة تخرج أقرانه وهو معهم حيث توقف عن الاستمرار فى مراجعة الدكتور طه حسين أولا - وثانيا أنه وجد فى عمله كناظر مدرسة تحقيقا لذاته.. ونجح من خلاله فى أن ينسى الماضى ويعيش فى الحاضر.. حتى عادة الحنين والشوق إلى ما هجره من الكتب التى تبحث فى الشعر الجاهلى الذى قد انشق بسببه عن الجامعة وانكب على دراسته فى بيئته، وكان لهذا وذاك مع الغربة أثره فى صقل شخصيته وتحويله من شاب ثائر حاد المزاج إلى شخص صلب العود مطمئن الفؤاد بالنسبة لماضيه، محصن ضد التحسر عليه وقد قر قراره على أن يجعل من نفسه يسعى للكمال والنجاح ما وسعه الجهد !

عودة إلى الوطن

عاد الفتى إلى أرض الوطن واندمج فى الوسط الأدبى ، وخالط أدباء وشعراء ذلك الجيل ابتداءً من أمير الشعراء أحمد شوقى الذى كان يلازمه أياما وليالى طويلة، إلى أبناء جيله يحيى حقى ومحمود حسن إسماعيل وصديقه العقاد وزكى نجيب محمود وغيرهم كثير

سيأتي ذكرهم فيما ارتبط معهم من أعمال، وتفرغ للكتابة فى الصحافة والمجلات الأدبية مثل الرسالة والثقافة والمقتطف والبلاغ والزمان، ولم تصرفه المقالات المتتابعة عن مواصلة العمل في جانب من أهم جوانب حياته ، وهو نشر روائع التراث بتحقيق علمي وفق منهج مستقل عرف عنه وتلقاه العلماء بتقدير كبير.

لكن هل أبحرت به سفينة الحياة آمنة هادئة وسط الأنواء والعواصف ؟

الشاهد انه كلما أوغلنا فى عالم «شاكر» نكتشف أن حياة هذا المفكر ما هى إلا سلسلة متصلة من المعارك الضارية ، فعندما أفردت له المقتطف عددا خاصا بمناسبة مرور ألف عام على وفاة المتنبى - كما ألمحنا سابقا - كتب أول دراسة لشخصية المتنبى من خلال آثاره الشعرية واعتبرته فيما بعد مرجعا أساسيا لدراسة شعر المتنبى.. لذلك .. وعندما أصدر الدكتوران عبدالوهاب عزام وطه حسين كتابهما عن المتنبى بعد عام واحد.. ارتفع الجدل والنقاش بين شاكر وغيره مرة أخرى حول الشاعر العباسى العظيم، وقضية الشعر العربى بوجه عام وكان شاكر انذاك فى الثامنة والعشرين من عمره.

وربما كان من القفز فوق الأحداث أن نقول : إن قضية المتنبى بين الرجلين أحدثت معركة حديثة. ذلك أنه عندما أعاد طبع هذه الدراسة مرة أخرى عام ١٩٧٧ مع إضافة أوجه اختلافه ومناقشاته مع الدكتور طه حسين وغيره.. كانت سببا فى فتح ملف هذا الجدل مرة ثالثة، وكتب الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة الجديدة، فى

سبتمبر عام ١٩٧٨، يوازن بين كتاب المتنبى للدكتور طه حسين، وكتاب المتنبى للأستاذ محمود شاكر.. فقال معلقا «إنه لشيء محزن أن يصل اللدد فى الخصومة، بين شاكر وطه حدا يجعلنا نسلب طه حسين أخص خصائصه ونتجاهل أجمل قدراته ، ونصفه بأنه رجل جاهل وليس له بصر يتنوق به الشعر» مما أحزن شاكر.. فرد عليه بعدة مقالات نشرت فى الرسالة تحت عنوان «المتنبى ليتنى ما عرفته».

مما دعا شاكر إلى توضيح موقفه للدكتور دسوقى فقال : «أما عن مسألتى مع طه حسين فى الجامعة فى ذاتها فهى غير قادرة على أن تنشىء بينى وبين الدكتور طه «خصومة»، وأيضا، لم يكن لها، لا بالفعل ولا بالقوة، فى نفسى أو فى قلبى أو فى عقلى ، أو فى شىء مما أكتب، أثرا يمكن أن يحرك «خصومة» وإذا كنت ممن يخاصم الناس على آرائهم أو ممن يخاصم الآراء نفسها ، فأولى الناس كان بخصومتى هو مرجليوث صاحب المسألة وصاحب المتن.. أما الدكتور طه فلم يكن سوى ناقل لهذه المسألة.. وصاحب حاشية على هذا المتن لا أكثر ولا أقل، ولكن القضية التى نشأت عندى أنا وكانت محاضرة الدكتور سببا فى نشأتها يوم كنت طالبا عنده فى الجامعة، فهى «قضية السطو» على أقوال الناس وآرائهم وأعمالهم.. ثم ادعاء تملكها تملك عزيز مقتدر ثم الاستعلاء بهذا الملك المغصوب والإستطالة به على الناس.. وأبشع من ذلك انه ينكشف أمر هذا الغصب والسطو .. ويتسامع به الناس ويدل الكُتّاب والعلماء على الأصل المغصوب كتابة موثّقة منشورة، فلا يبالى الساطى بشىء من ذلك كله بل يزداد جرأة وتيها عما لم يقل، وكأن

ظهور سطوة فضيلة ترفع من قدره وتنوه به فى المجالس، أما أنا، مع أسفى واعتذارى.. فلم أعد هذا المسلك إلا احتقارا للناس أى احتقار وازدراء بهم وبعقولهم أى ازدراء، وإنزالهم منزلة من لا يبصر ولا يسمع ولا يعقل ولا يحس».

ثم أنهى المقال بالرد على الاتهام الثانى فقال : «نعم أنا قلت مرارا لا أحصيها فى كتابى وفى مقالاتى عن كتاب الدكتور طه «مع المتنبى» أن الدكتور طه لا بصر له بالشعر «ولكنى لم أقل قط أنه لا بصر له بتذوق الشعر».

والجملتان غير متكافئتين فى المعنى حتى تغنى إحداهما عن الأخرى أو تقوم مقامها.. وأنا أعلم أن أهل زماننا يتساهلون فى كل شىء، ويتساهلون خاصة فى التعبير، بلا تحديد ولا تحليل لألفاظ اللغة، وكنت أحب لك أن لا تتابعهم على هذا التساهل. ولكنى أعلم أيضا أن هذه هى أيضا إحدى السنن التى سنها «الأساتذة الكبار»، فغلبت على الناس وعلى ألسنتهم فأصابت منهم موقعا أغفلهم عن حقيقة الفساد الذى يجره التساهل».

المعروف أن الأستاذ زكى مبارك كان له نفس الرأى بأن طه حسين «لا بصر له بالشعر» وذلك فى أضخم معركة فى تاريخ الأدب العربى بين زكى مبارك وطه حسين ولكن الناس أيضا تنسى.. أو قل لا تقرأ تراثها الحديث.

أما عندما ظهرت فى سنة ١٩٤٣ الدعوات الهدامة، للدين، والأخلاق واللغة التى صدرت عن دعوة هدم الدين.. ككتاب «فى الشعر

الجاهلي» لطه حسين فقد ظهرت بعض الكتب .. في الرد عليه وكان الأستاذ شاكر هو أول من رد عليه وهو لايزال طالبا .. أما دعوة هدم الأخلاق فقد شملت الشرق كله لا مصر وحدها .. فتزلزلت نظمنا القديمة كالحفاظ على الأسرة.. كما يلاحظ أن الآباء فقدوا سلطانهم على الأسرة.. زد على ذلك موجة الإسراف والتبذير وانتشار المخدرات.. ثم انتشرت الصور العارية في المجلات، من مجلة الهلال فنازلا - أو فصاعدا إن شئت لا أدرى - كما قال الدكتور كامل حسين مؤلف «كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» .. وانحرف على أثر كل ذلك التقاليد.. الشعر أيضا، كما طغت الرواية على سائر فنون الأدب حتى أهملت الشعر أو كادت.. وقد نبه إلى خطر هذا الانحراف بعض الكتاب، فأخذوا يلفتون إليه الأنظار فمن ذلك مقال لتوفيق دياب عنوانه «الأدب الماجن مفسد للناشئين»، كما أشار الأستاذ الغمراوى في نقده التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي للقصص الفاضحة التي يترجمها طه حسين من آن لآخر يلهي بها كثيرا من النشء ويضل بها كثيرا.